

المسؤولية في القرآن الكريم

مدلولها ، أنواعها ، فوائدها

أ. بتول إبراهيم مغربي(*)

لا يعيش المسلم في المجتمع منفردًا، بل لا بد من اختلاطه بالناس من حوله، وهذا يترتب عليه أن يكون إما مسئولاً عن بعض أفراد أو هو تحت مسؤولية آخرين، وهذا أحد الأسباب التي دفعتني للكتابة حول هذا الموضوع؛ ونظرًا لأنه أسند إلي في وقت واحد عدة مهام ومسؤوليات علمية وعملية وعائلية. كانت تتطلب إعطاءها ما يلزم، وبعد الاستخارة والبحث قررت أن يكون موضوع بحثي في مادة التفسير الموضوعي حول (المسؤولية في القرآن مدلولها، وأنواعها، وفوائدها، وآثارها).

وقد سرت في البحث على النحو التالي:

- ١- جمع الآيات حول الموضوع وترتيبها.
- ٢- الرجوع إلى كتب التفسير في شرح معاني الآيات.
- ٣- الإفادة من الكتب التي تناولت هذا الموضوع من أي جانب من جوانبه.
- ومن الدراسات السابقة في هذا الموضوع، والتي اطلعت علي بعض منها:
- ١- مسؤولية المرأة في ضوء الكتاب والسنة. إعداد: محمد مصطفى المختار الشنقيطي.

(*) الباحثة بالسنة المنهجية بقسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى- المملكة العربية السعودية.

- ٢- مسؤولية النساء تجاه الأمة الإسلامية. د. سامية عبد العزيز.
٣- مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد. إعداد: عدنان باحارث.
٤- المسؤولية. د. محمد أمين المصري.

وقد جاءت خطة البحث على النحو التالي:

تمهيد: (ويتضمن: تعريف المسؤولية لغة واصطلاحاً) وأربعة أبواب وخاتمة.

الباب الأول: أنواع المسؤولية.

الباب الثاني: دراسة مقارنة بين المسؤولية في الإسلام، والمسؤولية عند علماء الاجتماع والتربية.

الباب الثالث: الآيات الواردة في المسؤولية وشواهد على ذلك من السنة.

الباب الرابع: من فوائد المسؤولية وآثارها.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل لكم من وقف إلى جانبي، وشد من أزمي وأخص بالشكر منهم شقيقي الأستاذ: ياسر مغيربي، جزاه الله خيراً.
هذا واسأله تعالى أن يتقبله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني بما علمت، ويوفقني للعمل به .

تمهيد

تعريف المسؤولية لغة:

المسؤولية مصدر صناعي^(١) مأخوذ من مادة (س أ ل) التي تسدل على استدعاء معرفة، أو ما يؤدي إلى المعرفة، أو استدعاء مال أو ما يؤدي إلى المال^(٢).

(١) معنى المصدر الصناعي: كون الشيء منسوباً إلى أصل الفعل، كالحريّة، والرفاهيّة، ونحوهما، ويصاغ بإضافة ياء.

(٢) نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم (٨/٣٤٠٠).

وقول الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتَوْثُونَ﴾ (الصافات: ٢٤)،
قال الزجاج: سؤالهم سؤال توبيخ وتقرير؛ لإيجاب الحجة عليهم لأن الله - جل
شأنه - عالم بأعمالهم^(١).

والمسئولية في اللغة^(٢): المطلوبة، أي ما يطلب من الإنسان أن يقوم به
ويتحمل تبعته.

والسؤال في اللغة: الطلب، ومنه إحساس المكلف بشيء أنه مطالب بأدائه،
فإذا قصر في الأداء فهو مسئول عن تقصيره، وطلب فعل شيء ينتج عنه استئثار
المسئولية.

ومن دوافع المسؤولية إقامة العدل بحسب عمل كل فيجزي الموفي بوفائه
وفاء، ويجزي المقصر بتقصيره خذلاناً وعقاباً^(٣).
اصطلاحاً:

قال الدكتور دراز: تعني المسؤولية كون الفرد مكلفاً بأن يقوم ببعض
الأشياء، وبأن يقدم عنها حساباً إلى غيره وينتج عن هذا التحديد أن فكرة المسؤولية
تشتمل على علاقة مزوجة من ناحية الفرد المسئول بأعماله، وعلاقته بمن
يحكمون على هذه الأعمال، والمسئولية قبل كل شيء هي استعداد فطري، إنها هذه
المقدرة على أن يلزم الإنسان نفسه أولاً، على أن يفى بعد ذلك بالتزامه بوساطة
جهوده الخاصة^(٤).

وقال الخاقاني^(٥):

(١) لسان العرب مادة سأل (١٩٠٧)، نضرة النعيم (٨/٣٤٠٠).

(٢) مسؤولية المرأة المسلمة، الشنقيطي.

(٣) مما أملاه على الدكتور ورداني.

(٤) دستور الأخلاق في القرآن (١٣٨).

(٥) نضرة النعيم (٨/٣٣٩٩).

يراد بالمسئولية الشعور بأداء الواجب والإخلاص في العمل، وليست
المسئولية مجرد الإقرار، فإن الجزم بالشيء لا يعطي صفة المسئولية، وإنما نجد
المتحسس بها أن هناك واجبات لا بد من الانقياد إليها بغض النظر عن النتائج، فإن
إنقاذ الغريق مما يشعر الشخص بالمسئولية في إنقاذه إذا كانت له القدرة على
الإنقاذ، وأن دفع الظلم ممن له القدرة على دفع الظلم يجب على ذلك الشخص أن
يدفع عن المظلوم، وهو مسئول عن الترك، فالمسئولية تختلف بلحاظ الأفراد،
وبلحاظ المجتمعات.

وقيل: المسئولية حالة يكون فيها الإنسان صالحاً للمواخذه على أعماله
وملزماً بتبعاتها المختلفة، وقد قررها القرآن في آيات كثيرة، فقال تعالى:
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥).
﴿أَلَيْسَتْ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة: ٢٦)، ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ
عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٩).
تعريف المسئولية^(١):

١- قوله تعالى: "وعدا مسئولاً" إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن الملائكة في
دعائهم للمؤمنين ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ (غافر: ٨)^(٢).
أولاً: وهنا نستخلص حديثاً عن المسئولية حيث في الإخبار عن أن الوعد
سيسأل من الله تعالى عمن وفى به، ومن لم يوف فيجب الوعد بمن وفى ومن
غدر وتخلف، فعندما يعلم المسلم ذلك وهو في الدنيا، فإنه يستشعر واجبه ويحاسب
نفسه، ويستشعر أين هو من الوفاء بوعده الله له وبوعده الله، وكيف لا يوفي ما وعد
به، وكيف يتخلف عن الوعد، وفي سؤال الوعد تصوير للمعنوي في صورة

(١) مما أملاه علي الدكتور ورداني.

(٢) عمدة الحفاظ ص ١٦١، باب السنين.

الحسي فيقر الوعد على من وفى وعلى من لم يوف به، ومن هنا يعلم العبد أنه لن تتحرك قدماء من موقفه أمام الله إلا بعد الجواب عن حاله مع الوعد.

وأما ارتباط معنى الوعد وتفسيره بدعاء الملائكة للمؤمنين ففيه توجيه لكل مؤمن أن يطلب من الله تعالى أن يجعله أهلاً لأن يصيبه دعاء الملائكة، وأن يتفضل به سبحانه عليه ليفوز للفوز العظيم، مع الذين يشملهم هذا الدعاء وفي هذه الإشارة إشعار أيضاً بالمسؤولية، حيث يدرك العبد المؤمن بالجزاء والبعث أنه مسئول عند الله عن موقفه كلما سمع دعاء الملائكة للمؤمنين، وهل هو مبال مهتم لأن يكون من أهل هذا الدعاء، وأن يلحقه منه نصب عظيم، فإذا استشعر ذلك فقد برهن على إحساسه بمسؤوليته عما سمع من القرآن، وعن حسابه أمام الله إذا كان لم يسمع ذلك الدعاء إعراضاً، أو تهاوناً، وغفلة كما أن فيه تذكير للمؤمنين وهم في الدنيا بأن يدعو بعضهم لبعض بظهر الغيب بمثل هذا الدعاء طلباً للقبول، ورغبة في تحصيل رضا الله، وهذا أيضاً إشعار بمسؤوليتهم عن أنفسهم، حيث يدل على ذلك عدم إلقاء المؤمن بنفسه إلى التهلكة قاصداً الوفاء لنفسه، وذاته بحق نفسه عليه عند الله تعالى عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم: "وإن لنفسك عليك حقاً" وقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله سائل كل راع عما استرعاه"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "إن أشد ظلم، ظلم الإنسان على نفسه".

ويؤكد معنى المسؤولية عن النفس قوله تعالى في أكثر من موضع في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَظْلِمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. وقوله: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فمن ظلم نفسه، فإنما هو مقصر في مسؤوليته عن نفسه.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (البقرة: ١١٩)،

قرئ: ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ مبنياً للمفعول على الخبر المنفي، أي إنما عليك أن تبلغ.

وفي معناه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد: ٤)، ﴿هَمَا عَلَيْكَ

مِنْ حِسَابِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٥).

وفي هذا إشارة إلى ما استشعره النبي الكريم ﷺ من المسؤولية وعما
أوجبه على نفسه من الاجتهاد في الدعوة، وإحساسه بمدى ما عليه للمكلفين من
واجب الإنذار والتبشير والنصح والتذكير، حتى بلغ به الحال أن قال الله له: ﴿فَإِنْ
اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ مَسَلًّا فِي السَّمَاءِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ
بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾. وقد قال الله تعالى له:
﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

وفي كل ذلك ما يشير إلى عظم ما استشعره في نفسه ﷺ من المسؤولية
عن دين الله تعالى وتبليغه، وهو الذي كان أشد ما يكون غضبًا إذا انتهكت حرمان
الله، وهو الذي شق على نفسه في الدعاء يوم بدر بنصرة المؤمنين، وظهور هذا
الدين حتى قال له الصديق: هون على نفسك، فإن الله منجز لك ما وعده.
وقد قال الله له: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ
مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.
وما هذه الأوصاف له ﷺ إلا سبب قوة ما استشعره من المسؤولية عما
كلف به.

الباب الأول : أنواع المسؤولية

الفصل الأول: أنواع من المسؤولية^(١):

١- المسؤولية الدينية: وهي التزام المرء بأوامر الله ونواهيه، وقبوله في حال المخالفة لعاقبتها ومصدره الدين.

٢- المسؤولية الاجتماعية: هي التزام المرء بقوانين المجتمع ونظمه وتقاليده.
وقيل: هي المسؤولية الذاتية عن الجماعة، وتتكون من عناصر ثلاثة هي: الاهتمام، والفهم، والمشاركة.

٣- المسؤولية الأخلاقية: هي حالة تمنح المرء القدرة على تحمل تبعات أعماله وآثارها، ومصدرها الضمير.
المسؤولية الشخصية:

من المبادئ التي قررها الإسلام قصر المسؤولية على المسؤول وحده، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٣٤). ﴿قُلْ لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ﴾ (سبا: ٢٥).

فلا يؤخذ بريء بجريرة مذنب، ولا يشترك أهله فيما اقترفت يده، أو نسب إليه.

اشترآك الراعي والرعية:

الراعي والرعية يدان تتعاونان على خير الأمة ورعاية مصالحها، وكفالة الأمن على حياة الناس وأعراضهم وأموالهم.

ولا يستقيم أمر الأمة، ولا تتسق شؤونها إلا إذا قام كل من الحاكم والمحكوم بمسؤولياته، وأخلص المعاونة لصاحبه، قال صلى الله عليه وسلم: "كلكم

(١) انظر : نضرة النعيم (٨/ص ٣٤٠٣-٣٤٠٧).

راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته.

أولاً: مسؤولية الراعي:

١- التسوية بين الرعية:

أمر الله الحاكم بالعدالة حتى يسوي بين الناس جميعاً، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْزِيكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا اٰغْلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلنَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨).
وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ اَنْ تَعْلَمُوا﴾ (النساء: ١٣٥).
وقال تعالى: ﴿وَاِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيْفَةً فِي الْاَرْضِ فَاَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَاِنَّا نَتَّبِعُ الْهَوَىٰ﴾ (ص: ٢٠).

وخرج ﷺ في مرضه الأخير بين الفضل بن العباس، وعلي بن أبي طالب، حتى جلس على المنبر ثم قال: "أيها الناس، من كنت جلست له ظهراً، فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخش الشحناء، فإنها ليست من شأني، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقاً إن كان له، أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس".

٢- رعاية مصالح الناس: على الحاكم رعاية المصالح الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأمنية، بإقامة المساجد للعبادة، وإنشاء المدارس للتعليم، ونشر المستشفيات للعلاج، وشق الطرق لإحياء الأرض، وتكوين المجتمعات اهتماماً للزراعة، والصناعة، والتجارة، وفتحاً لمجالات العمل أمامهم.

٣- حسن اختيار الأعوان :

حسن اختيار الأعوان من الأمناء المخلصين ذوي الدراية والكفاية، مما يحقق الغايات والأهداف، ويزيل من دنيا الناس الوساطة والمحسوبية والرشوة.

قال ﷺ: "من ولي منكم عملاً فأراد الله به خيراً، جعل له وزيراً صالحاً، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه".
٤- إعطاء القدوة الحسنة:

الحاكم سوق ما راج عنده راج عند الناس، قال عمر في خطبة له بعد توليته: من رأى في أعوجاجاً فليقومه، فقال أعرابي: والله لو رأينا فيك أعوجاجاً لقومناه بسيوفنا.

ومن شدة حرصه على مال الدولة وخوفه من سؤال الله عن الأموال العامة يقول: لو مانت شاة على شط الفرات ضائعة لظننت أن الله سائلني عنها يوم القيامة.

تحمل الفرد مسؤولية إصلاح المجتمع:

قال الدكتور عبد الكريم زيدان: ومن خصائص النظام الاجتماعي في الإسلام تحميل الفرد مسؤولية إصلاح المجتمع، بمعنى أن كل فرد فيه مطالب بالعمل على إصلاح المجتمع، وإزالة الفساد منه على قدر طاقته ووسعه، والتعاون مع غيره لتحقيق هذا المطلوب.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢).

الفصل الثاني: أنواع أخرى من المسؤولية مستنبطة من الآيات القرآنية.

١- مسؤولية الفرد عن حوله:

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَهْزُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٣ - ٢٥).

قال الرازي^(١): "اعلم أنه لما ذكر في الآية الأولى ما هو الركن الأعظم في الإيمان اتبعه بذكر ما هو شعائر الإيمان وشرائطه وهي أنواع:
النوع الأول: أن يكون الإنسان مشغلاً بعبادة الله تعالى، وأن يكون محترزاً عن عبادة غير الله، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا

إِيَّاهُ﴾.

وفيه بحثان:

الأول: القضاء معناه الحكم الجزم البت، الذي لا يقبل النسخ، ولفظ القضاء في أصل اللغة يرجع إلى إتمام الشيء وانقطاعه.
الثاني: قد ذكرنا أن هذه الآية تدل على وجوب عبادة الله تعالى، وتدل على المنع عن عبادة غير الله تعالى، وهذا هو الحق.
وفي الآية مسائل:

(المسألة الأولى): اعلم أنه تعالى أمر بعبادة نفسه، ثم اتبعه بالأمر ببر الوالدين، وبيان المناسبة بين الأمر بعبادة الله تعالى وبين الأمر ببر الوالدين من وجوه:
(الوجه الأول): أن السبب الحقيقي لوجود الإنسان هو تخلق الله تعالى وإيجاده، والسبب الظاهري هو الأبوان، فأمر بتعظيم السبب الحقيقي، ثم اتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري.

(الوجه الثاني): أن الموجود، إما قديم وإما محدث، ويجب أن تكون معاملة الإنسان مع الإله القديم بالتعظيم والعبودية، ومع المحدث بإظهار الشفقة، وأحق الخلق بصرف الشفقة إليه هو الأبوان لكثرة إنعامهما على الإنسان.

(الوجه الثالث): أن الاشتغال بشكر المنعم واجب، ثم المنعم الحقيقي هو الخالق سبحانه وتعالى، وقد يكون أحد من المخلوقين منعماً عليك، وشكره أيضاً

(١) ينظر تفسير الرازي (١٨٣/).

واجب لقوله عليه السلام: "من لم يشكر الناس لم يشكر الله" وليس لأحد من الخلائق نعمة على الإنسان مثل ما الوالدين.

(المسألة الثانية): ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ قال أهل اللغة: تقدير الآية وقضى ربك ألا تعبدوا إلا الله وأن تحسنوا، أو يقال: وقضى ألا تعبدوا إلا إياه وأحسنوا بالوالدين إحساناً.

ولفظ الآية مشتمل على قيود كثيرة، كل واحد منها يوجب المبالغة في الإحسان إلى الوالدين.

أحدها: أنه تعالى قال في الآية المتقدمة ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾. ثم إنه تعالى أرففه بهذه الآية المشتملة على الأعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة فنذكر من جملتها البر بالوالدين، وذلك يدل على أن هذه الطاعة من أصول الطاعات التي تقيد سعادة الآخرة.

وثانيها: أنه تعالى بدأ بذكر الأمر بالتوحيد، وثنى بطاعة الله تعالى، وثالث بالبر بالوالدين، وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة.

ورابعها: أنه تعالى لم يقل: وإحساناً بالوالدين، بل قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام.

ورابعها: أنه قال: ﴿إِحْسَانًا﴾ بلفظ التذكير، والتذكير يدل على التعظيم، والمعنى: وقضى ربك أن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً عظيماً كاملاً.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾. معناه: أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز، فيصيران عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أول العمر.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الجملة فعند هذا الذكر كلف الإنسان في حق الوالدين بخمسة أشياء:

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ﴾. وفيها معاني منها:

عن ابن الأعرابي: الأف الضجر، قال القتيبي: أصل هذه الكلمة أنه إذا سقط عليك تراب، أو رماد نفخت فيه لتزيله والصوت الحاصل عند ذلك هو قولك أف، ثم إنهم توسعوا فنكروا هذه اللفظة عند كل مكروه يصل إليهم، قال للزجاج: أف معناه النتن، وقول القائل: لا تقل لفلان أف، مثل يضرب للمنع من كل مكروه وأذية وإن خف وقل.

إن هذا اللفظ إنما يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء بحسب القياس الجلي.

ومن الأشياء التي كلف الله تعالى بها العباد في حق الأبوين قوله: ﴿وَلَا تَهْرُغْهُمَا﴾ يقال: نهره، وانتهره، إذا استقبله بكلام يزجره.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، اعلم أنه تعالى لما منع الإنسان بالآية المتقدمة عن ذكر القول المؤذي الموحش، والنهي عن القول المؤذي لا يكون أمراً بالقول الطيب، لا جرم أريد به بأن أمره بالقول الحسن، والكلام الطيب فقال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ والمراد منه أن يخاطبه بالكلام المقرون بأمارات التعظيم والاحترام.

قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ والمقصود منه المبالغة في التواضع، وذكر القفال رحمه الله في تقريره وجهين:

الأول: أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية، فكأنه قال للولد: اكفل والدك بأن تضمهما إلى نفسك، كما فعلا ذلك بك حال صغرك.

الثاني: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر بجناحه، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه، فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه.

قوله: ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ معناه: ليكن خفض جناحك لهما بسبب فرط رحمتك لهما، وعطفك عليهما بسبب كبرهما وضعفهما.

قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنَاهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، قال القفال : إنه لم يقتصر في تعليم البر بالوالدين على تعليم الأقوال، بل أضاف إليه تعليم الأفعال، وهو أن يدعو لهما بالرحمة فيقول: ﴿رَبِّ ارْحَمْنَاهُمَا﴾ ولفظ الرحمة جامع لكل الخيرات في الدين والدنيا، ثم يقول: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ يعني رب افعل لفعل بهما هذا النوع من الإحسان كما أحسنا إلي في تربيتهما إياي، والتربية هي التسمية. ثم قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نَفْسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾، والمعنى أنا قد أمرناكم في هذه الآية بإخلاص العبادة لله تعالى وبالإحسان بالوالدين، ولا يخفى على الله ما تضمرونه في أنفسكم من الإخلاص في الطاعة وعدم الإخلاص فيها، فاعلموا أن الله تعالى مطلع على ما في نفوسكم، بل هو أعلم بتلك الأحوال منكم بها.

وإذا كان الأمر كذلك كان عالمًا بكل ما في قلوبكم، والمقصود منه التحذير من ترك الإخلاص.

والمقصود من هذه الآية أن الأولى لما دلت على وجوب تعظيم الوالدين من كل الوجوه، ثم إن الولد قد يظهر منه تارة مخلة بتعظيمهما فقال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نَفْسِكُمْ﴾.. يعني أنه تعالى عالم بأحوال قلوبكم، فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق، بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية كانت في محل الغفران، والله أعلم^(١).

٢- مسؤولية الأب المسلم تجاه ولده:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لَقْمَانُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَتَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ

(١) التفسير الكبير ص (١٨٤/ - ١٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من مال، إن كانا فقيرين، وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها للنبي ﷺ وقد قدمت عليها خالتها، وقيل: أمها من الرضاعة، فقالت: يا رسول الله، إن أُمِّي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: نعم.

قوله: ﴿وَلَتَبْعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصية لجميع العالم، كأن المأمور الإنسان، ﴿أَنَابَ﴾ معناه مال ورجع إلى الشيء، وهذه سبيل الأنبياء والصالحين. قوله: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

قال لقمان لابنه: يا بني، وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى، وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه؛ لأن الخردلة يقال: إن الحس لا يدرك له ثقلًا، إذ لا ترجح ميزانًا، أي لو كان للإنسان رزق مثقال حبة خردل في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقها إلى من هي رزقه.

وقيل المعنى: إنه أراد الأعمال، المعاصي والطاعات، أي إن تلك حسنة أو الخطيئة مثقال حبة يأت بها الله أي لا تقوت الإنسان المقدر وقوعها منه. قوله: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ قيل: معنى الكلام المبالغة والانتها في التفهيم، أي أن قدرته تعالى تتال ما يكون في تضاعيف صخرة، وما يكون في السماء والأرض.

قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، يقتضي حضًا على تغيير المنكر، وإن نالك ضرر، فهو إشعار بأن المغير يؤذي أحيانًا، وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها، وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عز وجل، وهذا قول حسن لأنه يعم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره، وقيل: إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور، أي مما عزمه الله وأمر به.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ الصعر: الميل، ومعنى الآية: ولا تمل خدك للناس كبراً عليهم وإعجاباً واحتقار لهم، وهذا تأويل ابن عباس وجماعة، وقيل: هو أن تلوى شديداً إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحنقره، فالمعنى: اقبل عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً، وإذا حدثك أصغرهم فأصغ إليه حتى يكمل حديثه، وكذلك كان النبي ﷺ يفعل.

قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي متبخترًا متكبرًا.

قوله: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾، لما نهاه عن الخلق الذميم رسم له الخلق الكريم، الذي ينبغي أن يستعمله فقال: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي توسط فيه، والقصد: ما بين الإسراع والبطء.

قوله: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾، أي انقص منه، أي لا تتكلف رفع الصوت، وخذ منه ما تحتاج إليه، فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلف يؤذي، والمراد بذلك كله التواضع.

قوله: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، أي أقبحها وأوحشها، والحمير مثل في الذم البليغ والشتيمة، وهذه الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم، أو بترك الصياح جملة.

قوله: ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، اللام للتأكيد، ووجد الصوت وإن كان مضافاً إلى الجماعة؛ لأنه مصدر والمصدر يدل على الكثرة.

ويدخل في مسؤولية الفرد عن حوله مسؤولية المعلم، ومسؤولية الأم المسلمة تجاه نفسها، بالالتزام بقواعد الدين من الصلاة، وصيام، وزكاة، وعدم التبرج، وتجاه الأسرة، حسن التبعل للزوج، وحسن تربية الولد، وحسن التدبير

للمنزل، ومسؤوليتها تجاه المجتمع (بالدعوة إلى الله وتعليم العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ^(١).

٢- مسؤولية المجتمع عن الفرد:

قال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٢).

قال الألوسي ^(٢): قوله ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ﴾، بعدما زجر سبحانه عن السفاح ومبادئه القريبة والبعيدة أمر بالنكاح فإنه مع كونه مقصوداً بالذات من حيث كونه مناطاً لبقاء النوع على وجه سالم من اختلاط الأنساب مزجراً من ذلك.

والأيم قال النضر بن شميل: كل ذكر لا أنثى معه، وكل أنثى لا ذكر معها بكراً أو ثيباً.

قوله: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ على أن الخطاب للأولياء والسادات، والمراد بالصلاح معناه الشرعي، وقيل المراد بالصلاح: معناه اللغوي أي الصالحين للنكاح والقيام بحقوقه.

قوله: "من عبيدكم" هو كالعبادة جمع عبد، إلا أن استعماله في الممالك أكثر من استعمال العباد فيهم.

قوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. الظاهر أنه وعد من الله عز وجل بالإغناء.

قوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي غني ذو سعة لا يرزأه إغناء الخلاق إذ لا نفاذ لنعمته ولا غاية لقدرته ﴿عَلِيمٌ﴾، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

(١) ينظر مسؤولية النساء تجاه الأمة الإسلامية.

(٢) ينظر تفسير روح المعاني (٦/١٤١٧-١٤٨).

٣- مسئولية أفراد الأمة تجاه ولي الأمر:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩).

قال الألويسي^(١): بعدما أمر سبحانه ولاة الأمور بالعموم، أو الخصوص بأداء الأمانة والعدل في الحكومة، أمر الناس بإطاعتهم في ضمن إطاعته عز وجل، وإطاعة رسوله ﷺ حيث قال عز من قائل: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي الزموا طاعته فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ للمبعوث لتبليغ أحكامه إليكم في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه، وعاد الفعل وإن كانت طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله تعالى، اعتناء بشأنه ﷺ وقطعا لتوهم أنه لا يجب امتثال ما ليس في القرآن، وإذنا بأ، له ﷺ استقلالا بالطاعة لم يثبت لغيره.

وقوله: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ إيدنا بأنهم لاستقلال لهم فيها استقلال الرسول ﷺ واختلف في المراد بهم فقيل: أمراء المسلمين في عهد الرسول ﷺ وبعده ويندرج فيهم الخلفاء والسلطين، والقضاة وغيرهم، وقيل: المراد بهم أمراء السرايا.

قوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الخطاب فيه عام للمؤمنين مطلقا، والمعنى: فإن تنازعتم أيها المؤمنون أنتم وأولوا الأمر منكم في أمر من أمور الدين ﴿فَرُدُّوهُ﴾ فراجعوا فيه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ أي إلى كتابه ﴿وَالرَّسُولِ﴾ أي إلى سنته. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ متعلق بالأمر الأخير للوارد في محل النزاع، إذ هو المحتاج إلى التحذير عن المخالفة، فإن الإيمان بالله تعالى يوجب امتثال أمره، وكذا الإيمان باليوم الآخر لما فيه من العقاب على المخالفة ﴿ذَلِكَ﴾

(١) ينظر تفسير روح المعاني (٦٨/٥).

أي الرد المأمور به العظيم الشأن ﴿خَيْرٌ﴾، لكم وأصلح ﴿وَأَحْسَنُ﴾ أي أحمد في نفسه. ﴿تَأْوِيلًا﴾، أي عاقبة.

٤ - مسؤولية جماعة عن جماعة:

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

قال الأوسى^(١): قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ أمرهم سبحانه بتكميل الخير إثر أمرهم بتكميل النفس ليكونوا هاديين مهديين على ضد أعدائهم، فإن ما قص الله تعالى من حالهم، فيما سبق يدل على أنهم ضالون مضلون.

والأمة الجماعة التي تؤم وتقصّد لأمر ما . والمراد من الدعاء إلى الخير: الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني، أو دنيوي فعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه في قوله سبحانه: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ من باب عطف الخاص على العام إيذاناً بمزيد فضلها على سائر الخيرات.

وأخرج ابن مردويه عن الباقر عليه السلام قال: "قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ ثم قال: للخير إلتباع القرآن وسنتي" وهذا يدل على أن للدعاء إلى الخير لا يشمل الدعاء إلى الأمور الدنيا.

﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي الموصوفين بتلك الصفات الكاملة ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الكاملون في الفلاح.

وأخرج الإمام أحمد وأبو يعلى عن درة بنت أبي لهب قالت: سئل رسول الله ﷺ من خير الناس؟ قال: أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر وإتقاهم الله تعالى وأوصلهم للرحم.

(١) ينظر التفسير الكبير (١٢٦/٢٨ - ١٣٦).

والأمر بالمعروف يكون واجباً ومندوباً على حسب ما يؤمر به والنهي عن المنكر كذلك أيضاً.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَكُمُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بَشَرِ الْأَسْمَاءِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات: ٨ - ١٢).

قال الرازي^(١): لما حذر الله المؤمنين من الذبأ الصادر من الفاسق، أشار إلى ما يلزم منه استدراكاً لما يفوت، فقال فإن اتفق أنكم تبنون على قول من يوقع بينكم، وآل الأمر إلى اقتتال طائفتين من المؤمنين، فأزيلوا ما أثبتته ذلك الفاسق وأصلحوا بينهما.

﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾، أي الظالم يجب عليكم دفعه عنه، ثم إن الظالم إن كان هو الرعية، فالواجب على الأمير دفعهم، وإن كان هو الأمير، فالواجب على المسلمين منعه بالنصيحة فما فوقها. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا﴾، إشارة إلى نادرة أخرى وهي البغي؛ لأنه غير متوقع.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾، يحتمل وجوهاً:

(١) ينظر التفسير الكبير (١٢٦/٢٨ - ١٣٦).

أحدها: إلى طاعة الرسول وأولي الأمر لقلوه تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

وثانيهما: إلى أمر الله، أي إلى الصلح فإنه مأمور به يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

وثالثها: إلى أمر الله بالتقوى.

قوله: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾، أي واحكموا بينهما بعد تركهما القتال بالحق، وأصلحوا بالعدل مما يكون بينهما، لئلا يؤدي إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى.

قوله: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ كان فيه تخصيص بحال دون حال فعمم الأمر في قوله: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أي في كل أمر مفض إلى أشرف درجة، وأرفع منزلة وهي محبة الله، والإقسط إزالة القسط وهو الجور.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ تتميماً للإرشاد وذلك لأنه لما قال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ كان لظان أن يظن، أو لمتوهم أن يتوهم أن ذلك عند اختلاف قوم، فأما إذا كان القتال بين اثنين فلا تعم المفسدة فلا يؤم بالإصلاح، وكذلك الأمر بالإصلاح هناك عند الاقتتال، وأما إذا كان دون الاقتتال كالشنائم والتسافه، فلا يجب الإصلاح فقال: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إشارة إلى ما يصونهم عن التشاجر، لأن من اتقى الله شغله تقواه عن الاشتغال بغيره، ولهذا قال النبي ﷺ: "المسلم من سلم الناس من لسانه ويده"، (إنما) للحصر أي لا أخوة إلا بين المؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ...﴾.

وقد بينا أن السورة للإرشاد بعد إرشاد، فبعد الإرشاد إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى، ومع النبي ﷺ ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق، بين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن، وقد ذكرنا أن المؤمن إما أن يكون حاضراً، وإما أن يكون غائباً، فإن كان حاضراً فلا ينبغي أن يسخر منه، ولا يلتفت إليه بما ينافي التعظيم، وفي الآية الأمور ثلاثة مرتبة بعضها دون بعض وهي السخرية، واللمز، والنبز، فالسخرية هي أن لا ينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال، ولا يلتفت إليه ويسقطه عن درجته، وحينئذ لا يذكر ما فيه من المعاييب. الثاني: وهو اللمز وهو ذكر ما في الرجل من العيب في غيبته.

الثالث: هو النبز وهو مجرد التسمية، وإن لم يكن فيه.

قوله: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ﴾ القوم اسم يقع على جمع من الرجال، ولا يقع على النساء ولا على الأطفال؛ لأنه جمع قائم، والقائم بالأمور هم الرجال. قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن عيب الأخ عائد إلى الأخ، فإذا عاب عائب نفسه، فكأنما عاب نفسه. وثانيهما: هو أنه إذا عابه وهو لا يخلو من عيب يحاربه المعيب فيعيبه، فيكون هو بعيبه حاملاً للغير على عيبه وكأنه هو العائب نفسه.

قوله تعالى: ﴿فِيئْسَ الْأِثْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾، أن يقول للمسلم يا يهودي بعد الإيمان، أي بعد ما آمن فيئس تسميته بالكافر. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: أن يقال: هذه الأشياء من الصغائر فمن يصر عليه يصير ظالماً، فاسقاً، وبالمرة الواحدة لا يتصف بالظلم والفسق.

ثانيهما: أن يقال قوله: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ﴾، ﴿وَلَا تَلْمِزُوا﴾، ﴿وَلَا تَنَابَرُوا﴾، منع لهم عن ذلك في المستقبل.

وقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ﴾، أمرهم بالتوبة عما مضى وإظهار الندم عليها،
مبالغة في التحذير، وتشديدًا في الزجر.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ
إِنَّمْ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بْغُضُكُم بَعْضًا أَتُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا
فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

لأن الظن هو السبب فيما تقدم، وعليه تبني القباح، قوله: ﴿كَثِيرًا﴾،
إخراج للظنون التي عليها تبني الخيرات، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ظنوا
بالمؤمنين خيرًا".

قوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِنَّمْ﴾، إشارة إلى
الأخذ بالأحوط، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. أي: ولا تتبعوا الظن، ولا تجتهدوا
في طلب اليقين في معائب الناس، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بْغُضُكُم بَعْضًا﴾،
إشارة إلى وجوب حفظ عرض المؤمن في غيبته.

قوله تعالى: ﴿أَتُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، دليل على أن
الاغتياب الممنوع اغتياب المؤمن لا ذكر الكافر؛ وذلك لأنه شبهه بأكل لحم الأخ.
وقوله: ﴿لَحْمَ أَخِيهِ﴾، أكد في المنع، قوله: ﴿مَيْتًا﴾؛ لأن الموت يورث النفرة إلى
حد لا يشتهي الإنسان، أن يبيت في بيت فيه ميت، فكيف يقربه، بحيث يأكل منه،
ففيه إذا كراهة شديدة، فكذاك ينبغي أن يكون حال الغيبة.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾، عطف على ما تقدم من
الأوامر والنواهي أي اجتنبوا واتقوا.

٥- مسؤولية ولاية الأمر عن الأمة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ
بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾
(النساء: ٥٨).

قال الأكوسي^(١): إنه سبحانه وتعالى أرشد المؤمنين بأبلغ وجه إلى بعض أمهات الأعمال الصالحة، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ عن ابن عباس ؓ قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان بن أبي طلحة، فلما أتاه قال: أرني المفتاح فاتاه به فلما بسط يده إليه قام العباس، فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي اجعله لي مع السقاية، فكف عثمان يده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فهاتني المفتاح يا عثمان فبسط يده يعطيه، فقال العباس مثل كلمته الأولى، فكف عثمان يده، ثم قال رسول الله ﷺ: يا عثمان إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، فهاتني المفتاح، فقال: هاك بأمانة الله تعالى، فقام ففتح الكعبة فوجد فيها تمثال إبراهيم عليه السلام معه أقذاح يستقسم بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما للمشركين قائلهم الله تعالى، وما شأن إبراهيم عليه السلام وشأن القذاح؟! وأزال ذلك، وأخرج مقام إبراهيم عليه السلام وكان في الكعبة؛ ثم قال: يا أيها الناس هذه القبلة، ثم خرج فطاف بالبيت، ثم نزل عليه جبريل عليه السلام - فيما ذكر لنا - برد المفتاح فدعا عثمان بن أبي طلحة فأعطاه المفتاح، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، الآية.

قال حين أعطى المفتاح: خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم".

إن هذا خطاب لولاية الأمر أن يقوموا برعاية الرعية، وحملهم على موجب الدين والشريعة، وعدوا من ذلك تولية المناصب مستحقيها، وفي تصدير الكلام - بأن - الدالة على التحقيق وإظهار الاسم الجليل، وإيراد الأمر على صورة الإخبار من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال والدلالة على الاعتناء بشأنه ما لا مزيد، ولهذا ورد من حديث ثوبان قال: قال رسول الله عليه وسلم: "لا إيمان لمن لا أمانة له".

(١) ينظر تفسير روح المعاني (٦٣/٢-٦٥).

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : "أن رسول الله ﷺ قال: ثلاث من كن فيه فهو منافق، وإن صام وصلى، وزعم أنه مسلم، من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان".

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُكِّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، أمر بإيصال الحقوق المتعلقة بذمم الغير إلى أصحابها إثر الأمر بإيصال الحقوق المتعلقة بذممهم، فالواو للعطف ﴿أَنْ تَحْكُمُوا﴾، بالإنصاف والسوية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾، جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها، متضمن لمزيد اللطيف بالمخاطبين وحسن استدعائهم إلى الامتثال وإظهار الاسم الأعظم لتربية المهابة ﴿يَعِظُكُمْ﴾، أي نعم الشيء شيء يعظكم به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾، بجميع المسموعات، ومنها أقوالكم، قوله تعالى: ﴿بَصِيرًا﴾، بكل شيء ومن ذلك أفعالكم.

٦- مسؤولية الأفراد بعضهم عن بعض وعن المجتمع كله :

قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠).

قال الألوسي^(١): قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق، والدعوة إلى الخير، قوله: ﴿أُخْرِجَتْ﴾، أي أظهرت.

والظاهر أن الخطاب وإن كان خاصاً بمن شاهد الوحي من المؤمنين، أو ببعضهم، لكن حكمه يصلح أن يكون عاماً للكل، كما يشير إليه قول عمر رضي الله عنه فيما حكي قتادة "يا أيها الناس من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤيد شرط الله تعالى

(١) ينظر تفسير روح المعاني (٤/٢٧-٢٨).

منها". والمتبادر من المعروف : الطاعات، ومن المنكر : المعاصي التي أنكرها الشرع.

قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، أريد بالإيمان به سبحانه، الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به؛ لأن الإيمان إنما يعتد به ويستأهل أن يقال له إيمان، إذا آمن بالله تعالى على الحقيقة، وحقيقة الإيمان بالله تعالى أن يستوعب جميع ما يجب الإيمان به، فلو أخل بشيء منه لم يكن من الإيمان بالله تعالى بشيء.

قوله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾، لم يبعد أي لو آمنوا إيماناً، كما ينبغي لكان ذلك الإيمان ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾، مما هم عليه من الرياسة في الدنيا لدفع القتل والذل عنهم.

قوله: ﴿مَنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾، كعبد الله بن سلام وأخيه، رضي الله عنهما، قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي الخارجون عن طاعة الله تعالى، وعبر عن الكفر بالفسق إيذاناً بأنهم خرجوا عما أوجبه كتابهم.

ذكر الدكتور المصري أنواعاً أخرى من المسؤولية فقال: "والصحف ووسائل الإعلام والدعاة، كل هؤلاء مسئولون في البلاد الإسلامية عن توعية الشعوب توعية صحيحة، وإيقاظ وجدانها وإيقاظها على الأخطار التي تحدق بها، وهذه الوسائل اليوم توجه الأمم، وتلعب بالعقول وتسيطر عليها اليهود في كبريات بلاد العالم"^(١).

الباب الثاني : دراسة مقارنة بين المسؤولية في الإسلام والمسؤولية عند علماء الاجتماع والتربية

قال د. حسن الحجاجي: يرى ابن القيم أن مسؤولية التربية تقع على الآباء والمربين، لا سيما إذا كان الناشئ في أول مراحل نموه، فإنه في أمس الحاجة إلى تقويم أخلاقه وتوجيه سلوكه، وهو بمفرده لا يستطيع القيام بذلك، فالمسؤولية على

(١) للمسؤولية، ص (٩٤).

ولي أمره، يقول رحمه الله: "ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه، فإنه ينشأ على ما عوده المربي في صغره من حرد وغضب ولجاج، وعجلة، وخفة مع هواه وطيش، وحدة، وجشع، فيصعب عليه في كبره تلاقي ذلك وتصير هذه الأخلاق صفات وهينات راسخة، فلو تحرز منها غاية التحرز فضحته ولا بد يوماً ما، ولهذا نجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم، وذلك من قبل التربية التي نشأ عليها".

فابن القيم يبين أن للتربية أهمية قصوى في تهذيب الخلق وتقويم السلوك، كما يوضح أن التربية السليمة هي التي تجعل التهذيب والتعويد شأنًا في رسوخ الصفات الطيبة، وفي هذا القول أيضًا يحمل ابن القيم التربية مسؤولية انحراف الأخلاق والسلوك".

وقال د. علي أبو العنين: "من المقومات الأساسية التي يقوم عليها المجتمع المسلم أنه مجتمع مسئول، كل فرد فيه مطالب بالمشاركة في تسيير أمور مجتمعه، والمسلمون مسئولون عن بعضهم، ومأمورون بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

وقد ذكر الأستاذ عدنان باحارث مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد وتتلخص في التالي:

مسؤولية الأب في تكوين الأسرة، مراعاة الأب لحقوق المولود الجديد، مسؤولية الأب في التعليم والتأديب، مسؤولية الأب في التربية الخلقية، ويتضمن: "الأخلاق مع الله، الأخلاق مع الرسول والأنبياء والملائكة، الأخلاق مع النفس، الأخلاق مع المسلمين، الأخلاق مع غير المسلمين، الأخلاق مع غير المكلفين)، مسؤولية الأب في التربية الفكرية، مسؤولية الأب في التربية الجسمية.

وقال د. محمد دراز^(١): "بالرغم من أن سلوك الأطفال منظم في الشريعة الإسلامية، حتى في أدق تفاصيله، فإن الشرع غير متوجه إليهم، بل إلى آبائهم وإلى الحكام، والأساتذة، والرؤساء، أي إلى الأمة بأكملها، فهي التي على كاهلها تقع مهمة تربيتهم..." إلى أن قال: "إذا كانت مسؤوليتهم قد تخففت فما ذلك إلا لترتبط مسؤوليتنا تجاههم".

ونذكر مثلاً على ذلك فقال: "إن الإسلام في دعوته الأطفال لأداء شعائرتهم الدينية لا ينتظر بلوغهم، بل يجب علينا أن نشجعهم، متى بلغوا سن السابعة، على أن يؤدوا الصلاة دون إكراه، فإذا بلغوا العاشرة ولم يطيعوا أدبناهم عليها أدباً مترقفاً.

وفي النوم يجب أن نفرق بينهم في فرشهم، ومن قول الرسول ﷺ في ذلك: "مروا الصبي بالصلاة، إذا بلغ سبع سنين، وإذا بلغ عشر سنين، فاضربوه عليها، وفي رواية: مروا أولادكم... وفرقوا بينهم في المضاجع"^(٢).

قال الدكتور ورداني: لئن كان التربويون وعلماء الاجتماع قد تفقت أذهانهم عن واجبات اجتماعية، وتربوية يكون بها قيام المجتمع الصالح الفاضل، وصولاً بأفراده إلى الرقي الحضاري، لكنهم مهما دققوا النظر وأمعنوا الفكر، فلن يحيطوا بكل شيء فيما يصل بهم إلى هذا الهدف، ولن نجد أوفى من شريعة أنزلها اللطيف الخبير العليم بعباده على الصادق الأمين، الذي زكى الله لسانه وعلمه وعقله، وزكى خلقه، وأمانته، ولا شك أن في ذلك المنهج الذي هذا وصفه يكون الأمان التام، والدقة الكاملة، فيما يأمر به هذا المنهج أو ينهى عنه، وعنوان ذلك قوله ﷺ: "الدين النصيحة، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله، ولكتابيه، ولأئمة المسلمين وعامتهم".

(١) دستور الأخلاق في القرآن، ص ١٦٦-١٦٨.

(٢) أبو داود، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة.

وكذلك قوله ﷺ : "الدين المعاملة"، وقول الله تعالى في غير موضع:
﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ هُمْ سَوَاءٌ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وقوله سبحانه وتعالى:
﴿لَا يَجْزِيكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْبُدُوا ۚ اعْبُدُوا اللَّهَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وقوله تعالى:
﴿وَلَا يَجْزِيكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدَّقَكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۚ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْغُرُوحِ﴾.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنَا رَبُّكُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾
وبالوالدين إحساناً﴾ إلى آخر الوصايا في آخر سورة الأنعام، وهي تؤكد على
تحسين العلاقة بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان وخالقه، وعلى الأخص إذا
كانت العلاقة بين طرفين أحدهما ضعيف أو محتاج، وجعل الله الوفاء بذلك عنواناً
لطااعته ولبلوغ الشرف ولاتقاء عذابه وغضبه، بل جعل سبحانه قيام المجتمع على
حسن العلاقة فيما بين أفرادها، وبين كل واحد منهم بخالقه ودعاة الخير، جعل الله
ذلك صراطاً مستقيماً منسوباً إليه عز وجل، وأن من سار فيه واتبعه بلغ الدرجة
العالية، ومنزل الخالدين، ومن زاغ عنه تفرقت به الطريق إلى سبيل الردى
والهلاك.

فالإسلام هو شاطئ الأمان في كل ما جاء به لسعادة بني الإنسان دنيا
وأخرة، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ
حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الباب الثالث : الآيات الواردة في المسؤولية

١- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ
وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۚ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا
بِالْقِسَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

قال الرازي^(١): "اعلم أنه تعالى أمر بخمسة أشياء أولاً: ثم اتبعه بالنهي عن ثلاثة أشياء وهو: النهي عن الزنا، وعن القتل إلا بالحق، وعن قربان مال اليتيم إلا بالتتي هي أحسن، ثم اتبعه بهذه الأوامر الثلاثة، فالأول قوله: ﴿وَأَوْقُوا بِالْعَهْدِ﴾.

اعلم أن كل عقد تقدم لأجل توثيق الأمر وتوكيده فهو عهد فقوله: ﴿وَأَوْقُوا بِالْعَهْدِ﴾، نظير لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْقُوا بِالْعُقُودِ﴾، فدخل قوله: ﴿وَأَوْقُوا بِالْعَهْدِ﴾: كل عقد من العقود كعقد البيع والشركة، وعقد اليمين والنذر، وعقد الصلح، وعقد النكاح، وحاصل القول فيه: أن مقتضى هذه الآية إن كل عقد، وعهد جرى بين إنسانين، فإنه يجب عليهما الوفاء بمقتضى ذلك العقد والعهد، إلا إذا دل دليل منفصل على أنه لا يحل الوفاء به.

ويؤكد هذا النص بسائر الآيات الدالة على الوفاء بالعهود والعقود كقوله: ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَتُوا﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾، وقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾، وقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، وقوله عليه السلام: "لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيبة من نفسه" وقوله: "إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم يداً بيد".

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولاً﴾، وفيه وجوه: أحدها: أن يراد صاحب العهد كان مسئولاً، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه كقوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾. وثانيهما: أن العهد كان مسئولاً أي مطلوباً بطلب من المعاهد أن لا يضيعه وفيه به.

ثالثها: أن يكون هذا تخيلاً كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفي بك تكيبتا للناكث، كما يقال للموعودة ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلْتُ﴾، وكقوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

(١) التفسير الكبير (٢٠٤/١٩).

اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ ﴿١﴾، الآية، فالمخاطبة لعيسى — عليه السلام — والإنكار على غيره.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾. اعلم أنه تعالى لما اشرح الأوامر الثلاثة، عاد بعده إلى نكر النواهي، فنهى عن ثلاثة أشياء:

أولها: قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، قوله: ﴿تَقْفُ﴾ مأخوذ من قولهم: قفوت أثر فلان، اقفوا قفوا وقفوا إذا تبعت أثره، وسميت قافية الشعر قافية؛ لأنها تقفوا البيت، وسميت القبيلة المشهورة بالقافة؛ لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس، ويستدلون بها على أحوال الإنسان، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا﴾، وسمي القفا قفا؛ لأنه مؤخر بدن الإنسان كأنه شيء يتبعه ويقفوه لقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾، أي ولا تتبع ولا تقتف ما لا علم لك به من قول أو فعل، وحاصله يرجع إلى النهي عن الحكم بما لا يكون معلوماً، وهذه قضية كلية يتدرج تحتها أنواع كثيرة، وكل واحد من المفسرين حمله على واحد من تلك الأنواع وفيه وجوه:

(الوجه الأول): المراد نهى المشركين عن المذاهب التي كانوا يعتقدونها في الإلهيات والنبوات بسبب تقليد أسلافهم؛ لأنه تعالى نسبهم في تلك العقائد إلى اتباع الهوى فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾، وقال في إنكارهم للبعث: ﴿بَلْ إِذْ أَرَأَيْتُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا غَمُونَ﴾، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾، الآية. وقال: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾.

(القول الثاني): نقل عن محمد بن الحنفية أن المراد منه شهادة الزور، وقال ابن عباس: لا تشهد إلا بما رأيته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك.

(القول الثالث): المراد منه النهي عن القذف، ورمي المحصنين
والمحصنات بالأكاذيب، وكانت عادة العرب جارية بذلك يذكرونها في الهجاء
ويبالغون فيه.

(القول الرابع): المراد منه النهي عن الكذب، قال قتادة: لا تقل سمعت ولم
تسمع، ورأيت ولم تر، وعلمت ولم تعلم.

(القول الخامس): أن القفو هو البهت وأصله من القفا، كأنه قول يقال
خلفه، وهو في معنى الغيبة، وهو ذكر الرجل في غيبته بما يسوءه.
واعلم أن اللفظ عام يتناول الكل، فلا معنى للتقليد، والله اعلم.
قوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾، فيه
بحثان:

البحث الأول: أن العلوم إما نوع مستفاد من الحواس، أو من العقول.
أما القسم الأول: فالإشارة بذكر السمع والبصر، فإن الإنسان إذا سمع
شيئاً ورآه، فإنه يرويه ويخبر عنه.

وأما القسم الثاني: فهو العلوم المستفادة من العقل وهي قسمان: البديهية
والكسبية، وإلى العلوم العقلية الإشارة بذكر الفؤاد.

البحث الثاني: ظاهر الآية دل على أن هذه الجوارح مسؤولة وفيه وجوه:
(الوجه الأول): أن المراد أن صاحب السمع والبصر والفؤاد هو
المسئول؛ لأن السؤال لا يصح إلا ممن كان عاقلاً، وهذه الجوارح ليست كذلك، بل
العاقل لفاهم هو الإنسان، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾. والمراد أهلها يقال
له: لم سمعت ما لا يحل لك سماعه، ولم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه، ولم
عزمت على ما لا يحل لك العزم عليه.

(الوجه الثاني): أن تقرير الآية أن أولئك الأقوام كلهم مسئولون عن
السمع، والبصر، والفؤاد، فيقال لهم: استعملتم السمع في ماذا أفي الطاعة، أو في
المعصية؟ وكذلك القول في بقية الأعضاء، وذلك لأن هذه الحواس آلات النفس،

والنفس كالأمير لها والمستعمل لها في مصالحها، فإن استعملتها النفس في الخيرات استوجبت الثواب، وإن استعملتها في المعاصي استحققت العقاب.

(الوجه الثالث): أنه ثبت بالقرآن أنه تعالى يخلق الحياة في الأعضاء، ثم إنها تشهد على الإنسان والدليل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ولذلك لا يبعد أن يخلق الحياة، والعقل، والنطق في هذه الأعضاء، ثم إنه تعالى يوجه السؤال عليها.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْقُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْقُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٤-٣٥).

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم.

وقوله: ﴿وَأَوْقُوا بِالْعَهْدِ﴾، أي الذي تعاهدون عليه الناس، والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾، أي عنه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾، قال علي بن طلحة عن ابن عباس يقول: لا نقل، وقال العوفي: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم، وقال محمد بن الحنفية: يعني شهادة الزور، وقال

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٠٧/٤).

فتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله، ومضمون ما ذكره أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

وفي الحديث: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث"، وفي سنن أبي داود "بئس مطية الرجل: زعموا" وفي الحديث الآخر: "إن أفرى أفرى أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا" وفي الصحيح: "من تحلم حلمًا كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل" وقوله: "كل أولئك" أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنَهُ مَسْئُولًا﴾، أي سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتسال عنه وعما عمل فيها، ويصح استعمال أولئك مكان تلك، كما قال الشاعر:

نم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام
٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنَيْنِ دَعَوْا هَٰذَاكَ ثُبُورًا . لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا . قُلْ أُنْذِرُكُمْ خَيْرَ أَمِ جَنَّةِ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا . لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾.

قال البقاعي: "ولما كانت عادتهم تجوز الممكن من كل ما يحذرون منه من الخلق، اقتضى الحال سؤالهم: هل أعدوا لما هددوا به من الخالق عدة أم لا؟ في سياق الاستفهام عن المفاضلة بينه وبين ما وعده المتقون، تنبيهًا على أنه أعلى رتبة من الممكن، إنه واقع لا محالة، وتهكمًا بهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ أُنْذِرُكُمْ﴾، أي الأمر العظيم الهول الذي أوعدهم من السعير الموصوف.

ولما كانت عادة العرب في بيان فضل الشيء دون غيره الإتيان بصيغة "افعل" تنبيهًا على أن سلب الخير عن مقابلة لا يخفى على أحد، أو يكون ذلك على طريق

التنزيل وإرخاء العنان، تنبيهاً للعاقل على أنه يكفيه في الرجوع عن الغي طرق احتمال لكون ما هو عليه مفضلاً قال: "خير أم جنة الخلد" (١).
قال الماوردي (٢): قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضيقًا﴾، قال عبد الله بن عمرو إن جهنم لتضيق على الكافرين كضيق الزج على الرمح، ﴿مَقْرَنِينَ﴾، فيه وجهان:

أحدها: مكثين، قاله أبو صالح.

الثاني: يقرن كل واحد منهم إلى شيطانه، قاله يحيى بن سلام ﴿دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: ويلا، قاله ابن عباس.

الثاني: هلاكاً، قاله الضحاك.

الثالث: معناه وانصرافه عن طاعة الله، حكاه ابن عيسى. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: "أول من يقوله إبليس".

قال النيسابوري (٣): ثم وبخهم بقوله: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾، أي وعدوها فحذف الرابط للعلم به وليس هذا الاستفهام كقول القائل الشكر أحلى أم الصبر، ولكن الغرض منه التفرغ كما إذا أعطى السيد عبده ما لا فتمرد وأبى واستكبر فضربه ضرباً وجعاً، ويقال على سبيل التوبيخ هذا طيب، أم ذاك؟! والإضافة في جنة الخلد للتوضيح والتأكيد لا للتمييز فإن الجنة معلوم أن نعيمها لا ينقطع.

قالت الأشاعرة في قوله: ﴿وُعدَ﴾، دلالة على أن الجنة إنما تستحق بحسب الوعد، والفضل لا لأجل العمل، وقالت المعتزلة في قوله: ﴿الْمُتَّقُونَ﴾، إشارة إلى

(١) نظر الدرر (٣٥٥/١٣).

(٢) النكت والعيون تفسير الماوردي، راجعه وعلق عليه: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٣) نقلاً عن تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١٢٨/٨).

أن الجنة لا تتال إلا بالتقوى، ولذلك أكد بقوله على سبيل التخصيص بسبب تقديم الجار ﴿كَأَنَّ لَهُمْ جَزَاءً وَاصِيراً﴾، أجابت الأشاعرة بأن كونه جزءاً يثبت في الأزل ولا عمل هناك.

قالت المعتزلة: لا غفران لصاحب الكبيرة إن الجنة جاءت جزاء للمتقين، خاصة فلا يعطى حقهم غيرهم.

أجابت الأشاعرة بأنه لم لا يجوز أن يرضى المتقون بإدخال الله أهل العفو الجنة، قال جار الله: ذكر المصير مع ذكر الجزاء مدخاً للثواب، ومكانه كقوله نعم للثواب، وحسنت مرتقاً !

وفي قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾، دلالة على أن حصول المرادات بأسرها لا تكون إلا في الجنة، ولما في الدنيا فالراحات فيها مخلوطة بالجرافات، والضمير في (كان) لما يشاءون.

واستدلّت المعتزلة بقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾، أن ذلك واجب على الله حتى أنه لو لم يفعل استحق الذم، وأجيب بأنه واجب بحكم الوعد لقوله: ﴿وَعَذَابًا مِّنْهُنَّ﴾، كان المكلفين سألوا بلسان الحال من حيث تحملوا المشقة الشديدة في طاعه أو سألوه حقيقة بقوله: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾، أو سألته الملائكة في قولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾، لو من حقه أن يسأل ويطلب؛ لأنه حق واجب بحكم الاستحقاق، أو بحسب الموعد على المؤمنين.

قال ابن جرير^(١): "عن ابن عباس: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَغَدَا مَسْئُولًا﴾، قال: سألوه إياها في الدنيا، طلبوا ذلك فأعطاهم وعدهم إذ سألوه أن يعطيهم فأعطاهم، فكان ذلك وعداً مسئولاً، كما وقت أرزاق العباد في الأرض قبل أن يخلقهم، فجعلها أقواتاً للسائلين، وقت ذلك على مسألتهم، وقرأ: ﴿وَوَقَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ (فصلت: ١٠).

(١) تفسير الطبري (٤١٤/١٧).

وقد كان بعض أهل العربية يوجه معنى قوله: ﴿وَعَدًا مَسْئُولًا﴾، إلى أنه معنى به: وعدًا واجبًا، وذلك أن المسئول واجب وإن لم يُسأل، كالسؤال، ويقول: ذلك نظير قول العرب: لأعطينك ألفًا وعدًا مسئولا، بمعنى أنه واجب لك، فتسأله. قال البقاعي^(١): "قال معنى أنه إذا انضاف إلى تحثيمه الشيء على نفسه سؤال الموعود به إياه، أنجزه لا محالة، وهو من وادي ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وفيه حث عظيم على الدعاء، وترجية كبيرة للإجابة، كم وعد بذلك سبحانه في ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾، و﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وإن لم ير الداعي الإنجاز، فإن الأمر على ما رواه الإمام أحمد والبخاري وأبو يعلى - قال المنذري: بأسانيد جيدة - والحاكم وقال: صحيح الإسناد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا: إن نكث؟ قال: الله أكثر."

وللحاكم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه فيقول: عبدي! إني أمرتك أن تدعوني، ووعدتك أن استجيب لك فهل كنت تدعوني؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول: أما أنك لم تدعني بدعوة إلا استجبت لك؟ أليس دعوتي يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك؟ فيقول: نعم يا رب! فيقول: إني عجلتها لك في الدنيا، ودعوتي يوم كذا وكذا، ولغم نزل بك أن أفرج عنك، فلم تر فرجًا؟ قال: نعم يا رب! فيقول: إني أخرت لك بها في الجنة كذا وكذا، ودعوتي في حاجة أقضيها لك في يوم كذا وكذا فقضيتها؟ فيقول: نعم يا رب! فيقول: إني عجلتها لك في الدنيا، ودعوتي في يوم كذا وكذا في حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها؟ فيقول: نعم يا رب فيقول: إني أخرت لك بها في الجنة كذا وكذا.

(١) نظم الدرر (٣٥٦/١٣).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن، إلا بين له إما أن يكون عجل له في الدنيا، إما أن يكون ادخر له في الآخرة، فيقول المؤمن في ذلك المقام: يا ليتني لم يكن عجل له شيء من دعائه".

ولابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تعجزوا في الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد.

وللترمذي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة".

وللبخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي".

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدَّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ (الأحزاب: ١٥).

قال البقاعي^(١): "أي هؤلاء الذين أسرعوا الإجابة إلى الفرار مع الدخول عليهم على تلك الصفة، من سبى حريمهم واجتياح بيضتهم"، ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ﴾، أي الذي لا أجل منه، ولما كان العهد ربما طال زمنه فنسي، فكان ذلك عذراً لصاحبه، بين قرب زمنه بعد بيان عظمة المعاهد اللازم منه ذكره، فقال مثبتاً الجار ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أي قبل هذه الحالة وهذه الغزوة حين أعجبتهم المواعيد الصادقة بالفتوحات التي سموها الآن عندما جد الجد مما هي مشروطة به من الجهاد غرورا.

﴿لَا يُولُونَ﴾، أي يقربون عدوهم، ﴿الدَّبَارَ﴾، أي أدبارهم أبداً لشيء من الأشياء، ولا يكون لهم عمل إذا حمى البأس، وتخالط الناس، واحمرت الحق، وتداعس الرجال، وتعانق الحماة الأبطال إلى الظفر أو الموت.

(١) نظم الدرر (٣٠٩/١٥).

ولما كان الإنسان قد يتهاون بالعهد لإعراض المعاهد عنه قال: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ﴾، أي الوفاء بعهد من هو محيط بصفات الكمال، ولما كان العهد فضلة في الكلام لكونه مفعولاً، واشتدت العناية به هنا، بين ذلك بتقديمه أو لا، ثم يجعله العمدة، وإسناد الفعل إليه ثانياً فقال: ﴿مَسْنُوءًا﴾، أي في أن يوفى به ذلك الذي وقع منه".

قال ابن الجوزي^(١): قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾، في وقت معاهدتهم ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم ناس غابوا عن وقعة بدر، فلما علموا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة قالوا: لئن شهدنا قتالاً لنقاتلن، قاله قتادة.

الثاني: أنهم أهل العقبة، وهم سبعون رجلاً بايعوا رسول الله ﷺ على طاعة الله ونصرة رسوله، قاله مقاتل.

الثالث: أنه لما نزل بالمسلمين يوم أحد ما نزل، عاهد الله معتب بن قشير وثعلبة بن حاطب: لا نولي دبراً قط، فلما كان يوم الأحزاب نافقا، قاله الواقدي، واختاره أبو سليمان الدمشقي، وهو أليق مما قبله.

وإذا كان الكلام في حق المنافقين، فكيف يطلق القول على أهل العقبة كلهم، قوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْنُوءًا﴾، أي: يسألون عنه في الآخرة".

قال القرطبي^(٢): قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾، أي من قبل غزوة الخندق وبعد بدر، قال قتادة: وذلك أنهم غابوا عن بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر، فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن، وقال يزيد بن رومان: هم بنو حارثة هموا يوم أحد، أن يفشلوا مع بني سلمة، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها فذكر الله لهم الذي أعطوه من أنفسهم.

(١) زاد السير (٣٦٢/٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٥٠/١٤).

﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾، أي مسئولاً عنه، قال مقاتل والكلبي: هم سبعون رجلاً بايعوا النبي - صلى الله عليه وسلم - ليلة العقبة، وقالوا: اشترط لنفسك ولربك ما شئت، فقال: "اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأموالكم وأولادكم" فقالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك يا نبي الله؟ قال: لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة. فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾، أي إن الله ليسألهم عنه يوم

القيامة.

٤- قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبَتُونَ . مِنْ ثُونِ اللَّهِ فَاهْتَوْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ . وَقَفَّوْهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتَوْلُونَ . مَا لَكُمْ لَّا تَتَّصِرُونَ . بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ (الصافات: ٢٢ - ٢٦).

قال البقاعي^(١): "احشروا أي: اجمعوا بكره وصغار، وذل أيها الموكلون بالعباد من الأجناد واطهر تعريفاً بوصفهم الموجب لحقنهم فقال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي بما كانوا فيه في الدنيا بوضع الأشياء في غير محالها من الخطب الذي لا يفعله إلا من هو في أشد الظلام.

﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، أي اتباعهم الذين استتوا بهم في ذلك الضرب من الظلم، وأشباههم فيه من الجن وغيرهم، ومن أعانهم ولو بشر كلمة أو رضى فعلهم لتصير كل طائفة على حدة فيصير بعضهم ييكت بعضاً، وبعضهم يشتم بعضاً". قال الشوكاني^(٢): "وقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، هو أمر من الله سبحانه للملائكة بأن يحشروا المشركين وأزواجهم، وهم أشباههم في الشرك، والمتابعون لهم في الكفر، والمشايعون لهم في تكذيب الرسل، كذا قال

(١) نظر الدرر (٢٠٨/١٦).

(٢) فتح القدير (٥١٥/٤).

قَتَادَةَ وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَمَجَاهِدٌ: الْمُرَادُ بِأَزْوَاجِهِمْ: نَسَاؤُهُمُ الْمَشْرَكَاتِ الْمَوَافَقَاتِ لَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: أَزْوَاجُهُمْ: قَرْنَائُهُمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَحْشُرُ كُلُّ كَافِرٍ مَعَ شَيْطَانِهِ ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾، مِنَ الْأَصْنَامِ وَالشَّيَاطِينِ، وَهَذَا الْعَمُومُ - الْمُسْتَفَادُ مِنْ (مَا) الْمَوْصُولَةِ، فَإِنَّهَا عِبَارَةٌ عَنِ الْمَعْبُودِينَ، لَا عَنِ الْعَابِدِينَ، كَمَا قِيلَ - مَخْصُوصٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ طَوَائِفِ الْكُفَّارِ مِنْ عَبْدِ الْمَسِيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَبْدَ الْمَلَائِكَةِ فَيُخْرِجُونَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠١).

وَوَجْهٌ حَشَرَ الْأَصْنَامَ مَعَ كَوْنِهَا جُمَادَاتٍ لَا تَعْقِلُ، هُوَ زِيَادَةُ التَّبَكُّيْتِ لِعَابِدِيهَا وَتَخْجِيلِهَا، وَإِظْهَارُ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ.

﴿فَاهْتَوْهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾، أَيَّ عَرَفُوا هَؤُلَاءِ الْمَحْشُورِينَ طَرِيقَ النَّارِ وَسَوَّاهُمْ إِلَيْهَا، يَقَالُ: هَدَيْتَهُ الطَّرِيقَ وَهَدَيْتَهُ إِلَيْهَا، أَيَّ دَلَلْتَهُ عَلَيْهَا، وَفِي هَذَا تَهْكُمُ بِهِمْ.

وَلَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ تَعْرِيفِهِمْ طَرِيقَ النَّارِ أَوْ لَا إِزْدِيَادَ الْحَسْرَةِ صَرَحَ بِمَا أَفْهَمَهُ حَرْفُ الْغَايَةِ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ فَقَالَ: ﴿وَقَفُّهُمْ﴾^(١).

قَالَ الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُورَ^(٢): "مَعْنَى ﴿وَقَفُّهُمْ﴾ أَمْرٌ بِإِقْفَائِهِمْ فِي ابْتِدَاءِ السَّيْرِ بِهِمْ لَمَّا أَفَادَهُ الْأَمْرُ مِنَ الْفُورِ بِقَرِينَةٍ فَأَاءَ التَّعْقِيبِ الَّتِي عَطَفْتَهُ، أَيَّ احْبَسُوهُمْ عَنِ السَّيْرِ قَلِيلًا لِيَسْأَلُوا سُؤَالَ تَأْيِيسٍ وَتَحْقِيرٍ وَتَغْلِيطٍ، فَيَقَالُ لَهُمْ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾، أَيَّ مَا لَكُمْ لَا يَنْصُرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَيُدْفَعُ عَنْهُ الشَّقَاءُ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَأَيْنَ تَنَاصَرَكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تَنَاصَرُونَ فِي الدُّنْيَا وَتَتَأَلَّبُونَ عَلَى الرَّسُولِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

(١) نَظْمُ الدَّرَرِ (٢٠٩/١٦).

(٢) تَفْسِيرُ التَّنْوِيرِ وَالتَّحْرِيرِ (١٠٢/٢٣).

فالاستفهام في ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصِرُونَ﴾ مستعمل في التعجيز مع التنبيه على الخطأ الذي كانوا فيه في الحياة الدنيا وجملة (ما لكم لا تناصرون) مبنية لإيهام (مسئولون) وهو استفهام مستعمل في التعجب للتذكير بما يسوءهم، فظهر أن السؤال ليس على حقيقته، وإنما أريد به لازمه وهو التعجب.

والمعنى: أي شيء اختص بكم، و(ما) الاستفهامية مبتدأ و(لكم) خبر عنه، وجملة ﴿لَا تَنَاصِرُونَ﴾ بتخفيف المثناة الفوقية على أنه من حذف إحدى التاعين، وقرأه البزي وابن كثير وأبو جعفر بتشديد المثناة على إدغام إحدى التاعين في الأخرى.

والإضراب المستفاد من (بل) إضراب لإبطال إمكان التناصر بينهم وليس ذلك مما يتوهمه السمع، فلذلك كان الإضراب تأكيداً لما دل عليه الاستفهام من التعجيز.

والاستسلام: الإسلام القوي، أي إسلام النفس وترك المدافعة فهو مبالغته في أسلم.

الباب الرابع : فوائد المسؤولية

من فوائد المسؤولية^(١):

- ١- تشعر بوجوب أداء الأمانة أمام الله، وأمام الناس.
- ٢- الإخلاص في العمل والثبات عليه.
- ٣- كسب ثقة الناس واعتزازهم به.
- ٤- يشعر الشخص المسؤول بالسعادة تغمره، كلما قام بتنفيذ عمل نافع.
- ٥- كل مسؤول بقدر استطاعة تحمله، ولا يخلو أحد من المسؤولية مهما قلت منزلته في المجتمع.

(١) نظر النعيم (٨/٣٤١٧).

٦- تجعل بنيان الدولة قويًا غير قابل للتصدع عند التعرض للمحن والحروب.

٧- المسؤولية تجعل للإنسان قيمة في مجتمعه.

أهم النتائج التي توصلت إليها ما يلي:

١- أن المسؤولية قررها الإسلام للفرد المسلم، وسيسال عنها يوم القيامة، كما جاء ذلك في القرآن والسنة.

٢- المسؤولية أنواع متعددة تشمل الفرد والمجتمع.

٣- يجني الفرد والمجتمع من تحمله للمسؤولية ثمارًا ونتائج طيبة في الدنيا والآخرة.

فهرس المراجع والمصادر

١- مسؤولية النساء تجاه الأمة الإسلامية، د. سامية عبد العزيز منيسي. ط الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، دار الفكر العربي، القاهرة.

٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضعه محمد فؤاد عبد الباقي.

٣- المسؤولية، د. محمد أمين المصري، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٠م، نشر دار الأرقم.

٤- موسوعة نضرة التعميم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - إعداد مجموعة من المختصين بإشراف: صالح بن حميد، عبد الرحمن بن ملوح، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية.

٥- دستور الأخلاق في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، ط ١٠، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

٦- مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد، إعداد: عدنان حسن باحارث، ط ٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، دار المجتمع للنشر والتوزيع.

٧- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للشيخ: أحمد بن يوسف المعروف، بالسمين الحلبي، ت: محمد باسل السود، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.

٨- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، دار الكتب المصرية، القاهرة.

٩- تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر.

- ١٠- تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشيين، دار الفكر للطباعة والنشر.
- ١١- التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، دار الكتب العلمية، طهران.
- ١٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألويسي، ط ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، دار الفكر بيروت.
- ١٣- زاد المسير في عالم التفسير، للإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي، المكتب الإسلامي.
- ١٤- فتح اللير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف: محمد بن علي الشوكاني، ت: د. عبد الرحمن عميرة، ط ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، دار الوفاء للطباعة والنشر.
- ١٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي، ط الأولى، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الهند.
- ١٦- تفسير التحرير والتوير، للعلامة محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
- ١٧- الفكت والعيون تفسير الماوردي: تصنيف أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، راجعه السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية بيروت، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للعلامة نظام الدين الحسن، ابن محمد القمي النيسابوري، بهامش تفسير الطبري ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، دار الفكر بيروت.
- ١٨- مسؤولية المرأة في ضوء الكتاب والسنة، محمود مصطفى المختار الشنقيطي، إشراف العجمي دمنهوري، رسالة ماجستير، قسم الدراسات العليا بكلية الشريعة.
- ١٩- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصبهاني.
- ٢٠- مجالس شهر رمضان، للشيخ محمد الصالح ابن عثيمين.

* *